# كلمة...

أستاذي وشيخي الفاضل:عبد الجليل هنوش...

كَفانِـي مـن الدُّنْيَا قَبُولُـكَ صُحْبَتِي فقَـدْ عَدّلَتْ مَمْشَـايَ والدّهْرُ أَعْرَجُ
إِذَا هَـامَ بِـي غَـمٌ فَجِئتُـكَ.. مَلّنِي وإنْ نَابَنِـي كَـرْبٌ، فَوَجْهُـكَ يُفْـرِجُ

# تصدير
# بقلم الدكتور عبد الجليل هنوش

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

حلم قديم راودني منذ بداية التسعينات من القرن الماضي، مفاده أن أجد باحثا جادا ينجز بحثا جامعيا عن منهج التذوق عند الأستاذ محمود محمد شاكر، وقد ظل هذا الحلم بغير أمل عشرين عاما أو ينيف، حتى جاءني شاب اسمه عبد الحميد العمري، وقد شغفه علم الأستاذ شاكر حبا، رأيته قادما من صحراء الرشيدية بالجنوب الشرقي للمملكة المغربية بروح مثقلة بهموم العربية التي حملها يافعا حتى إنك لتراه مقوس الظهر يتكئ على عكازة من ثقل ذلك الهم، وهو في ريعان الشباب لا يزال. لا شيء يشغله عن أدب الشيخ وعلمه غير الشعر الذي أراده أن يكون نفحة من النفحات التي تخفف من ذلك الهم الساكن في قلبه، فكان هذا الشعر يخرج من فيه ملتهبا قد أحمته كل تلك الهموم التي تنوء بحملها الجبال.

***

لنعد قليلا إلى الوراء لأتمثل نفسي في سن هذا الشاب الطموح العالي الهمة. كانت صلتي بالأستاذ محمود محمد شاكر عن طريق مصطفى صادق الرافعي، فقد كنت عاشقا لأدب الرافعي

وأنا طالب في بداية ولوجي للجامعة في سن لا تجاوز الثامنة عشرة، وظل حبي للرجل وأدبه يزداد ويقوى حتى سولت لي نفسي يومها أن أتسمى بين أصدقائي ب"الرافعي الصغير"، وهي التسمية التي نشرت بها مقالين عن الرافعي في سنة ١٩٨٤. ولم أترك يومها شيئا مما يمكن أن تصل إليه يدي من آثار الرافعي المكتوبة إلا واقتنيته، ثم التهمته بشوق وعشق فريدين.

وكان من فضل الله أن سعيت إلى معرفة كل من له بالرافعي صلة، فاكتشفت الأستاذ محمود شاكر من إشارة في كتاب "وحي القلم" ومن كتاب "حياة الرافعي" للعريان ومن كتاب "من رسائل الرافعي" لمحمود أبي رية، ومن يومها طفقت أبحث عن كتب الأستاذ فعثرت سنة ١٩٨٢ على كتاب "أباطيل وأسمار"، وكم كانت فرحتي به عظيمة، فقد كان كنزا كبيرا اكتشفت فيه قدرة على البيان طالما تشوفت إليها وهي قدرة مستمدة من مشكاة الرافعي بغير شك، فعرفت يومها أنه خليفته في حفظ البيان العربي. ومضيت أتذوق كلماته وعباراته وطريقته الفريدة في الاستدلال والجدل والتحليل، وأسلوبه العجيب في وضع عنوانات كتبه ومقالاته، ومسلكه المثير في افتتاح مقالاته ومخاطبته المتكررة لقارئه وكأنه جالس إليه يسمعه ويرد عليه . . أي رجل فريد هذا؟ وأي منهج عجيب ذاك الذي يبشر به ويتحدث عنه؟

ثم كتب الله أن تتحقق أمنية أضمرتها في نفسي منذ ولجت الجامعة وهي أن أنتقل إلى مصر لاستكمال الدراسة بها، وتحقق ذلك في شتنبر من سنة ١٩٨٤ حين حصلت على الإجازة في اللغة العربية وآدابها، وقد كان للرافعي وشاكر من غير ريب دور كبير في حملي على تعقب آثارهما. وما أن نزلت أرض القاهرة حتى تشوفت إلى زيارة الأستاذ شاكر بعد أن سألت من سبقني من الطلبة المغاربة إلى الديار المصرية، وهنا لابد أن أذكر أخا عزيزا وعالما جليلا كان منذ ذلك الوقت وهو اليوم من أجل علماء سوس بجنوب المغرب وهو الأخ الدكتور محمد جميل مبارك، فقد كان أول من استقبلني في غربتي بالقاهرة ويسر لي

أمورا كثيرة، وكان -ولا يزال- رجلا عالي الهمة سامي الخلق من أوسع من قابلت من الطلبة علما وفهما ودراية ورواية. هذه شهادة لابد منها في حق هذا الرجل لا أريد أن أتجاوز ذكر أمر نزولي بالقاهرة دون أن أشير إليها.

انتظرت أزيد من أسبوعين والشوق لزيارة الأستاذ يزداد حتى حضر الأخ الصديق عباس زهير من المغرب وقد سبقني إلى القاهرة بسنة كاملة، وكان يعرف بيت الأستاذ شاكر، فرافقني إليه جزاه الله خيرا. ومن يومها لم تنقطع زياراتي لمجلس الأستاذ، ففي مجلسه المبارك لقيت عددا كبيرا من العلماء والأدباء والفلاسفة.

اقتربنا من البيت في شارع حسين المرصفي بمصر الجديدة وقلبي يخفق خفقانا شديدا، كيف سيكون بيت هذا العالم الكبير؟ وكيف سألقاه؟ فتح لنا باب البيت ابنه فهر وكان أصغر مني سنا ويدرس في ذلك الوقت بكلية الآداب بجامعة القاهرة التي تسجلت في سلك الماجستير بها. ولجت الباب وقلبي لا يزال يخفق فإذا بالشيخ الجليل يجلس في مكانه المعلوم على أريكة في وسط الصالون ويحيط به ثلة من العلماء والأصدقاء، سلمت بغاية الإجلال على الشيخ المهيب فتزاحمت في نفسي أحاسيس كثيرة، أحسست أنني لم أسلم على رجل واحد بعينه وإنما على رجال كثيرين يختصرهم هذا الرجل وينوب عنهم في هذا العصر، أحسست أني إذ أسلم عليه فقد سلمت أيضا على الخليل بن أحمد وسيبويه والأخفش والشافعي وهلم جرا إلى الرافعي، كلهم اختزلوا في رجل مهيب يجلس أمامي باشا هاشا مرحبا بشاب صغير السن. هكذا رأيته وهكذا كنت أراه دوما لا رجلا واحدا على حياله وإنما رجال في رجل فكأنه يختزل تراث العربية والإسلام كله في عيني، ولذلك كان جلال المجلس وهيبته لا يفارقان قلبي. وزاد من هيبة المجلس أنني حيثما صرفت نظري في البيت إلا ووجدت

كتبا أنيقة تغطي جدران البيت من أرضيته إلى سقفه، بيت كل جدرانه كتب ! أي بيت هذا؟! وأي رجل ذاك؟!

سألني الشيخ في أول اللقاء عما قرأته بعد أن سجل اسمي في مذكرة صغيرة يكتب فيها أسماء كل من يزوره، فأجبته ظانا أن كلامي سيرضيه، قلت: "أنا قارئ نهم للرافعي"، فقال لي:" الرافعي لا يكفي يا بني، هل قرأت الشعر الجاهلي؟"

رج السؤال كياني رجا وهز نفسي هزا عنيفا، وأنا أسأل نفسي: هل درسنا الشعر الجاهلي في الجامعة حقا وقد أمضينا فيها أربع سنوات كاملة؟ تذكرت سويعات قليلة قضيناها في قراءة نتف من شعر امرئ القيس وزهير وطرفة وعمرو بن كلثوم، ولكنه كان كلاما مغمورا في ثرثرة كثيرة عن ظروف العصر السياسية والاقتصادية، فضاعت في خضم تلك الثرثرة كثير من قيم الشعر الجاهلي وفنياته، لولا أنني كنت أبتعد من كلية الآداب في بداية الثمانينات لأذهب إلى كلية اللغة العربية التابعة لجامعة القرويين لأحضر محاضرات أستاذ مصري كبير استقر به المقام في المغرب وهو الدكتور محمد نجيب البهبيتي رحمه الله لما اتسعت آفاقي في فهم الشعر القديم. وقد كان بالمناسبة أيضا من رواد بيت الأستاذ شاكر. كنت أذهب لحضور محاضراته وهي كلها تدور حول كتابه الجليل "تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري"، فاقتنيت الكتاب يومها وقرأته ثم اقتنيت باقي كتبه عن أبي تمام وعن المعلقات وعن المدخل لدراسة التاريخ والأدب العربيين وعن المعلقة العربية الأولى وكلها مطبوعة في المغرب، وقد وجدت فيها نظرا جديدا وتصورا مغايرا لتاريخنا وثقافتنا، فانضاف هذا الأستاذ إلى قراءاتي وإن ظل الرافعي هو واسطة عقدها لا يبلى عشقه وخصوصا في كتابه الفذ تاريخ آداب العرب.

كانت زياراتي لمجلس شيخي محمود محمد شاكر تملأ نفسي بطاقة غريبة أعود بعدها منتشيا كأنني سكران، معتزا عالي النفس، أعود لأحدث زملائي الطلبة عن مجلس الشيخ، وقد كانت هذه الزيارات تمتد أحيانا إلى ما بعد منتصف الليل، وخصوصا بعد أن عاد الأخ الدكتور محمود الطناحي من الخليج واستقر في القاهرة، حيث كان دائم التردد هو وأسرته الكريمة على منزل الأستاذ، وقد سعدت أيما سعادة بمعرفة هذا العالم الجليل واللغوي الكبير، واستمتعت بمجالسته وبما يضفيه على مجلس الأستاذ من روح الدعابة المصرية الراقية، رحمه الله فقد كان رجلا فذا من رجالات العلم .

صدر في هذا العام أي عام ١٩٨٤، كتاب "دلائل الإعجاز" للإمام عبد القادر الجرجاني بقراءة وتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر، وقد كان الظفر به في ذلك العام غنيمة وأي غنيمة. عكفت عليه أقرؤه لأكتشف وجها جديدا من علم الأستاذ ومنهجه في قراءة النصوص، قرأته أكثر من عشر مرات حتى حفظت كثيرا من عباراته وشواهده، فجعلته مركز حديثي في حصص الدرس بكلية الآداب بجامعة القاهرة، وبصورة خاصة في حصص أستاذي الفاضل الدكتور عبد المنعم تليمة الذي كان يدرسنا مادة "علم الأساليب"، مما قربني منه كثيرا مبديا إعجابه باللغة التي أعبر بها وبحرصي على الدقة والتدقيق، وهو ما جعله – رحمه الله– يدعوني غير مرة إلى بيته لأساعده في مراجعة بعض ما كان يحرره من أبحاث، وقد كنت أعتز أيما اعتزاز بعلاقتي الخاصة به.

كنت في هذا الوقت على اطلاع على كتاب "المتنبي" للأستاذ في طبعته القديمة، وكان إعجابي بهذا الكتاب موضع جدال وخلاف مع بعض زملائي من الطلبة، ثم ظهرت الطبعة الأخيرة لهذا الكتاب تتصدرها رسالته الفذة "رسالة في الطريق إلى ثقافتنا"، وهي الرسالة التي كان يحدثنا عنها الأستاذ في مجالسه وكنا ننتظر صدورها بفارغ الصبر، فلما

صدرت وقرأناها ارتفعت هممنا إلى عنان السماء. فقد أدركنا أن قراءتنا السابقة لتراثنا كانت قراءة سطحية لا عمق فيها، متسرعة لا ريث فيها، وميتة لا روح فيها. فإذا بالأستاذ يعلمنا كيف نقرأ من جديد، وكيف نفهم ما نقرأ، وكيف نكتسب منهجا في القراءة يخالف ما درج عليه الناس، وما رسخه طول الإلف، وما ابتذلته دروس الجامعة.

منهج جديد يقوم على التذوق... التذوق!... يا لسحر هذه الكلمة وغموضها.. وأذكر يومها وأنا طالب غض لا أزال، لم أجاوز الثانية والعشرين بعد، أنني كنت أحدث زملائي الطلاب عن هذا المنهج بالكثير من الحماسة والحمية محاولا تقليد كلام الأستاذ عنه، غير أني كثيرا ما كنت أشعر بالخيبة لأنهم لم يفهموا ما فهمت ولا أحسوا بما أحسست به! وكانت جدالاتهم تشعرني بالضيق أحيانا وبالعجز أحايين أخرى إذ لا أستطيع أن أقنعهم بما اقتنعت به، فأنا لا زلت طالبا غرا لم تستقم له الأداة بعد. وقد تفرق زملائي في النظر إلى كلامي فرقا عديدة، فمنهم من يشفق علي لكثرة إعجابي بالأستاذ شاكر وحديثي عنه، فلعل هذا الصنف كان يخشى علي أن أصاب بلوثة العشاق. ومنهم من كان ينظر من عل إلى ما أقول فلا يرى فيه إلا أثرا من الآثار القديمة التي يراد إحياؤها من قبور موتى بادوا وانتهوا ولا صلة لهم بالحداثة التي نعيشها. ومنهم من كان يتعجب من فعلي وقولي إذ لا يجد في كلام الأستاذ شيئا مما أجده، فهو عنده كلام كسائر الكلام، ولا يفهم سر إصراري على أنه كلام مختلف. ومنهم من يسمع ثم ينظر إليك نظر المستغرب المتعجب ثم يمضي لحال سبيله غير ملتفت إليك. وقد قضى الله أن يعود أكثرهم عما كانوا يذهبون إليه، حتى إن أوغلهم في الحداثة وأكثرهم سخرية مما كنت آتيه به من أقوال القدماء كالجاحظ وغيره عاد هو نفسه إلى هذا العلم ليكون من عشاق الجاحظ. ولا أشك أبدا أن جدالي معهم في ذلك الوقت كان هو سبب مراجعتهم لمذاهبهم السابقة.

ولما أسعفني الله بالاطلاع على مقالات الأستاذ في مجلة" الثقافة"، تلك التي سماها:" المتنبي ليتني ما عرفته"، انفتحت أمامي مرة أخرى سبل القول في منهج التذوق وظهر لي يومها أنه منهج يستند إلى نظرية واسعة في "البيان" تحتاج إلى تحرير وبناء.. وأن ما قاله عنها الأستاذ لا يعدو أن يكون إشارات تحتاج إلى تفصيل لا يتأتى إلا لمن خاض غمار أهوال مثل الأهوال التي خاضها الأستاذ نفسه... وكانت قدراتي وقتها دون هذا الأمر الجليل... وربما كان هذا هوما دعاني إلى التخصص في البلاغة العربية في مرحلتي الماجستير والدكتوراه.

وبعد عودتي من القاهرة إلى مراكش سنة ١٩٩٢، بعد مناقشتي لأطروحة الدكتوراه وبعد توديعي لأستاذي محمود محمد شاكر، التحقت بهيئة التدريس بجامعة القاضي عياض، ومشروع البيان العربي يملأ قلبي وعقلي، وقد أنشأت يومها وحدة للتكوين بسلك الدكتوراه في موضوع: "البلاغة وتكامل المعارف" سنة ١٩٩٨، وهي أول وحدة للدكتوراه يتم إنشاؤها هناك، وتخرج منها ثلة من الباحثين النجباء الذين يعمل أكثرهم اليوم بالجامعة المغربية في مراكش وآسفي وأكادير، ولا يزال المشروع قائما وقد شاء الله أن نستأنفه، بعد فترة توقف، بصورة مختلفة وهي أكثر توافقا مع هدفنا القديم حيث جعلنا عنوان الماستر هو" البيان العربي، قيمه التداولية ومناهج تأويله" وشفعناه بمختبر عن "البيان والقيم ومناهج التأويل".

ربما أطلت بعض الشيء في حديثي عن هذه الذكريات التي سأفصل فيها في مناسبة أخرى إن شاء الله، وقد كان هدفي هنا أن أشير إلى أن منهج التذوق يستعصي الحسم في أمره على الباحث المتعجل، وأن أدوات البحث فيه تحتاج في تحصيلها إلى صبر ووقت وروية وأناة، فحديث التذوق يلزم المشتغل به بالتعمق في قراءة علوم كثيرة قديمة وحديثة، قديمة كالنحو واللغة والبلاغة والتفسير والكلام والجدل والأصول وغيرها، وحديثة كاللسانيات

العامة واللسانيات النفسية والاجتماعية والتداوليات والأسلوبيات ولسانيات النص وتحليل الخطاب والفلسفة والتأويليات ونظرية الأدب ونظرية الترجمة وغيرها مما يموج به عصرنا من معارف وعلوم لا غنى للناقد عنها. وهذا يعني أن وفاءنا لشيخنا محمود محمد شاكر يقتضي منا تأصيلا جديدا لمنهج التذوق وتوسيعا لآفاقه المنهجية وتطويرا لإمكاناته التحليلية بما يجعله واحدا من أهم المناهج القرائية والتحليلية التي تفتق عنها الذهن العربي.

وفي سبيل القيام بهذا الأمر البالغ الخطر، فقد كلفنا الأخ عبد الحميد العمري لما لمسناه فيه من علم وخلق وهمة عالية ومحبة راسخة للأستاذ بالقيام بقسم من هذا المشروع الكبير وهو تأصيل منهج التذوق في تراثنا العربي للكشف عن جذور هذا المنهج في كتب التراث وبيان قواعده وأصوله وطرائقه.

وأعتقد موقنا أن الأخ عبد الحميد العمري قادر على فعل ذلك في رسالته للدكتوراه، وقد ظهرت علامات ذلك في البحث التمهيدي الذي أنجزه عن منهج التذوق عند الأستاذ شاكر وقدمه لنيل شهادة الماستر، وهو هذا الذي أقدم له بهذه المقدمة المتواضعة. فلعل هذا الكتاب يكون حافزا للشباب على النظر في كتب الأستاذ شاكر لفهمها وفحصها واستخراج العلم الناشب في ثناياها وتبين المنهج الذي أدركه الأستاذ بعد نضال طويل ومرير منافحا بقوة وعزم ويقين عن العربية وعلومها طيلة حياته، مجتهدا أن يبلغ لأبناء هذه الأمة حقيقة هذا المنهج علهم يدركون الطريق الذي يصلون به أول هذه الأمة بآخرها فتنهض من سباتها وتحرك جناحين مترهلين أوهنهما طول السكون بعد قرون من الكسل نسيت في طياتها أنهما جناحان للطيران لا جناحين للذل والاستكانة للهذيان.

رحم الله الشيخ الجليل محمود محمد شاكر شيخ العربية الأكبر في زماننا هذا، وجزاه الله أوفى الجزاء على كل ما قدمه راضيا محتسبا لهذه الأمة من أعمال جليلة، حين ترك طوعا

جامعة سقطت معاني جلالها في نفسه يافعا بسبب ما رآه فيها من فقدان قيم الأمانة العلمية ومن استهانة بتراث الأمة وعلومها، فنصره الله بأن أسس "جامعة بديلة" يؤمها فذا من محراب بيته بكتبه ومقالاته وتحقيقاته، حتى تحول بيته المتواضع إلى قبلة للعلماء والأدباء والمفكرين والباحثين من كل أنحاء الوطن العربي. وأكثر من هذا فإن كثيرا من رسائل الدكتوراه التي نوقشت بالجامعة المصرية كانت تعد بمكتبته العامرة وتحت إشرافه.

ما أحوجنا إلى إحياء تراثه وإنماء منهجه ومدارسة سيرته وحفظ وصيته في خدمة تراث هذه الأمة العظيمة، فقد قال رحمه الله سنة ١٩٤٨ في مقالته في الرسالة بعنوان "لمن أكتب؟" قال: "فأنا أكتب لرجل أورجال سوف يخرجون من غمار هذا الخلق، قد امتلأت قلوبهم بالقوة التي تنفجر من قلوبهم كالسيل الجارف، تطوح بما لا خير فيه، وتروي أرضا صالحة تنبت تباتنا طيبا. "

فلعل هؤلاء الرجال النابتين نباتا طيبا في تربة هذه الأرض المباركة والذين امتلأت قلوبهم بقوة الحق أن يكونوا أمل هذه الأمة في نهضتها الآتية وحمى هذه اللغة التي تكالبت عليها الذئاب والأصلال لخنقها والفتك بها في كل مكان وكل مجال، فهؤلاء الرجال هم الأمل في بناء المنهج العلمي الرصين الذي سيجعل لعلومنا وثقافتنا المكانة المرموقة اللائقة بأمة تؤمن بالحق ربا وإلها، وتنشد الحق منهجا وغاية وتبغي المجد همة وسعيا.

**وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.**

**وكتب: عبد الجليل هنوش**

**أستاذ البلاغة والنقد الأدبي**

**بكلية الآداب والعلوم الإنسانية**

**جامعة القاضي عياض، مراكش**

**مراكش في ٧ نونبر ٢٠١٧**

# مقدمة

الحمد لله كما ينبغي لنور وجهه وجلاله العظيم، أحمده سبحانه حمد المفتقر إليه، الطامع في رحمته ورضاه، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

وبعد: فإن الطريق تتشعب أمامي؛ وأنا أمهد للحديث عن شيخي أبي فهر محمود محمد شاكر (١٣٢٧- ١٤١٨هـ/ ١٩٠٩ - ١٩٩٧م) ومنهجه، فلا أدري من أين أبدأ؟ ولا إلى حيث أنتهي؟ لأني إنما عرفت الأدب حقا حين عرفت الشيخ، وتبينت طريقي حين قرأت له، ورأيت أمانة العلم ملقاة على عاتقي/ قد حملتها بعد أن اختاره الله لجواره، ونشأت بين يدي كتبه... فهي التي ربتني، وهي التي أرشدتني، وهي التي حمتني من سهام كثيرة كانت تترصدني وتترصد أبناء جيلي، بل لقد أصابت من الأجيال السابقة ما أصابت وبدأت فعلها في الجيل الحالي بشكل أقسى وأفظع... ولكن شاء الله أن ينقذني بمعرفة الشيخ، وبعلمه، وبأدبه... فإليه -بعد الله- يرجع كل فضل في انتشالي من بين أيدي الضلال ومخالب الضياع.

أما كيف عرفت أبا فهر، فإن الفضل كله -بعد الله- إنما هو لشاعر العربية الأكبر أبي الطيب المتنبي، فهو الذي دلني على الشيخ.. ثم أغراني أبو العلاء المعري بعد ذلك

بصحبته، فأجبتهما إلى ما نصحاني به فتعلقت بالشيخ وعلمه.. ذلك أني كنتُ شغوفا بأبي الطيب شغفا عظيما، أحفظ أكثر شعره، وأردده في كل وقت وحين، وكنتُ أرفض ما يقوله الناس في ترجمته من أنه ادعى النبوة، فقد كانَ شعره يقول لي غير ما تقول التراجم. ولكني لم أستطع أن أترجم عن نفسي أو أُبِينَ عمَّا أيقنتُ به وآمنتُ... ولم يكن يومئذ اسم محمود محمد شاكر معروفا لدينا، ولا كانَ أحد يذكره - في الجامعة فضلا عما قبلها -لا بخير ولا شر.. وحدث مرة أن زرتُ معرضا للكتاب في أحد الملتقيات الطلابية، فلمحتُ كتابا بعنوان كبير "المتنبي"، فأخذني حب أبي الطيب، وأخذت الكتاب بلهفة وفتحته فوقعت عيني على نفيه دعوى النبوة وبيان زيفها... وفرحتُ فرحا شديدا، ثم انتبهتُ فإذا بالذي عندي من المال لا يفي بثمنه ولا بنصفه، وعلي أن أعود إلى حيث أقيم لأحضر ثمن الكتاب، وحدث هذا في آخر يوم لي في تلك الزيارة للمدينة.. فذهبتُ مسرعا، وعدتُ فإذا الناس قد انفضوا وأغفلت الأبواب وسجنت الكُتبُ ومعها قلبي الذي تركته بين صفحات كتاب "المتنبي" الذي لم أعرفه بعدُ إلا معرفة الموافقة على الرأي، ولم أعرف صاحبه إلا مثل معرفة أحدنا لشاعر نطق عن خواطره وأحاسيسه.. وسافرتُ وفي نفسي حسرة وأسى، ورأَيْتُني كرجل عطشان وجد قربة ماء بعدما كاد يهلك فلم رفعها لفيه سقطت منه وانسكب على الأرض ماؤها، فلا هو بلَّ ريقه، ولا هو أبقى على الأمل الذي تبدد في آخر لحظة، فصار عطشه مضاعفا...

ومضيتُ والعطش يزداد يوما بعدَ يوم، ثم حدثنا أستاذي الكريم البشير التهالي -حفظه الله- في إحدى حصص الدرس عن الشيخ وذكر كتاب المتنبي، وأثنى عليه وعلى أبي فهر، ونصحنا باقتناء كتبه ودوام مطالعتها.. فكاد الغيظ يقتلني. واضطررت أن أبحث عن نسخة إلكترونية من الكتاب - على ما فيَّ من كره للقراءة في الحاسوب، لما فيها من مشقة كبيرة لا أرتاح لها، ولخلوِّ تلك القراءة من عبق الورق ونبضه وحنانه-،

فوجدتها بعد لأْيٍ، وأقبلت عليها متلهفا، حتى أنهيت القراءة، واتضحت لي الصورة وضوحا شبه كامل في ما يتعلق بأمر الدعوى.

لم تكن تلك القراءة كافية، لأني كنت أرى أن كتابا لم تقرأه ورقيا كتابٌ لم يُقرأ بعدُ.. فانطلقتُ في رحلة طويلة، جُبْتُ فيها مدنا عدة أبحث عن الكتاب، وفي مكتباتنا تجد كل الكتب إلا التي تبحث عنها، فإذا أردت كتابا فابحث عن غيره لتجده!! وطالت الرحلة شهرا كاملا من السفر المتواصل حتى وجدته بعدَ جهد جهيد... فكان ذلك أسعدَ يومٍ عشتهُ في حياتي، ومهما أبنتُ عن إحساسي وشعوري في أول عهدي بالوصال؛ فسيظل البيان عاجزا عن إظهار الصورة على الوجه الذي أحسست به، وبقي هذا اللقاء معنى شعريا طريا شريفا لا يجد لفظا يليق به فيلبسه، فظل جنينا في قلبي وعقلي، لا يريد أن يخرج من شده حيائه، لأنه يرى كل الألفاظ ثيابا غير ساترة، ويتخيل نفسه فيها كاسيا عاريا، فيرمي بها نافرا، ويلوذ بمخبئه، يرى أن حياته تطول ما دام في قبره، فإن خرج منه مات..

هكذا كانت قصتي الأولى مع أبي فهر رحمه الله، فتعلقت به وبعمله، ثم قرأت كتاب "أباطيل وأسمار" فزاد حبي له، لأنه انتصر لشاعري الثاني "أبي العلاء المعري" الذي كنت أحتفل أشد الاحتفال بلزومياته خصوصا.. وعكفت على كتب الشيخ أنهل منها ووجدتُ معينا من العلم لا ينضب، فلزمته، وأقمتُ مضاربي في ظله، فصرت أرى الدنيا والعلم والأدب بعين غير التي كنت أرى بها من قبل، والتفتُّ حولي، فلم أجد أحدا من أترابي وأصحابي يرى ما أراه، وأخذت أقرأ جهرة ما كنت أقرأ سرا من علم أبي فهر، ثم أتأمل في وجوه أصحابي لعلي أرى فيها وقع الجمل والكلمات والأحرف، فلا أرى شيئا إلا في وجهٍ كنت أرى فيه نفسي من قبل، فصرتُ أرى فيه أبا فهر وكلامه وعلمه وأدبه، فازداد شغفي بالشيخ بتوقد جمرة الحب في قلبي..

وإذن؛ فقد دلني أبو الطيب على أبي فهر، ووجدت في باب أبي فهر أبا العلاء، وأخذ حبي بيدي في هذه الرحلة، حتى تمنيت أن تطول الطريق أمامنا وتتشعب، وقد أعماني الحب: حب أبي الطيب وأبي العلاء وأبي فهر، وحب "فاتنة أخرى تهيج الكوامن"، أردد مع جميل شاعري العذري الأول في فورة جنون حبه وعشقه:

ألا يا ليتني أعمى أصم.. تقودني

بثينة لا يخفى علي كلامها

لا.. بل لقد هممتُ ذات مرة – من شدة الحب والاهتمام بعلم الشيخ وأدبه، وادعائي يومئذ فهم هذا العلم، وتصنيف نفسي مع صفوة المخلَصين للشيخ وعلمه – أن أضيف نفسي إلى شيخنا أبي فهر تبركا به وشحذا للهمة كي تسعى لبعض ما أصبو إليه، فرأيت أن يكون اسمي هكذا "عبد الحميد شاكر العمري"...

ثم أخبرني العقل والأدب أن إضافة اسم الشيخ إلى اسمي العائلي لن يصنع مني اسما لامعا، وأن وصف نفسي بابن الشيخ سيضعني إن لم أرفع نفسي لمستواه... وعلمتُ أنَّ الأمر كلَّه في العمل لا في الأسماء والألقاب... وأن أكثر من يُسَمُّون أنفسهم بأسماء شيوخهم أو قدوتهم في الأدب قد أعلنوا بذلك أنهم لن يكونوا شيئا في سماء الأدب...

وعلمت قبل ذلك وبعده أن الألقاب والكُنى تأتي من الخارج، فإذا كان اللقب داخليا كان معناه أقرب للكذب منه إلى الصدق، وإلى الادعاء منه إلى الحقيقة..

وعلمت بعد ذلك أن العظماء هم الذين يصنعون المجد لأسمائهم وألقابهم، وليست الألقاب هي التي تصنع المجد... فإن رأيتَ واحدا يستمطر المجد والشهرة باسم ليس له فقد حكم على عامه بالجدب...

وأدركتُ حينئذ أني كنتُ غبيا حين كنت أتخير لنفسي أسماء ترفعني - عند نفسي والجاهلين ممن حولي- إلى مصاف الأدباء من غير تحصيل حقيقة تلك الأسماء، وأن الذين يربطون أسماءهم بغيرهم من أهل العلم والأدب إشهارا لأنفسهم، فتجد (حفيد الرافعي، والعقاد الصغير، وشاكر الأوسط، وابن عم المتنبي، وابن البارودي ...) ممن ((يحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا)).. وإنما تلك الأسماء:

**أَلْقَـابُ مَمْلَكَـةٍ فِـي غَيْـرِ مَوْضِعِهَا كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخاً صُورَةَ الأَسَـدِ**

ورأيت فيما رأيت أيضا أن كثيرا ممن يتعصب للمتنبي أو المعري إنما يتعصب له لأن الشيخ محمود محمد شاكر كشف اللثام عن حقائق مهمة في حياتهما.. وكثير ممن يتعصب لأبي فهر إنما يتعصب له لأن بعض الشيوخ الذين يثق بهم قالوا له إن محمود محمد شاكر شيخ العربية وحارسها وإمامها في عصرنا.. ولو لم يقرأ له إلا جملا منشورة في صفحة أو موقع أو على لسان أحد الشيوخ!!

فرأيت أن لا لذة تعدل لذة أن يدلك الشاعر على الناقد الذي يحسن فهمه.. أما أن يدلك الناقد على شاعر يحبه، فهو دون الأمر الأول بمراحل.. أما أن يدلك أحد على ناقد فتتعلق به وتتعصب له -دون علم- فقط لأنك تحب من دَلَّكَ عليه، أو تكره من ذمهم ذلك الناقد، فذلك مرض لا علاج له!! ومن ذاق عرف..

وبدأت أحس منذ وعيتُ بعض علم الشيخ ومنهجه في تذوق الأدب والشعر، بل منهجه في الحياة بأني اهتديت أخيرا إلى معين لا ينضب من العلم والفن والمنهج السوي؛ به أستطيع أن أنظر إلى الحياة من الوجه الذي يجب النظر منه. ومع هذا الإحساس المفعم بالحياة، إحساسٌ بالضياع والحيرة التي يعانيها أبناء جيلي كما عاناها من قبلهم، فكان فرحي بما وجدت لدى الشيخ مصحوبا بأسف وحزن على تخبط من لم يعرف الطريق بعد...

ومن يومئذ عزمتُ على أن أتفرغ لنشر علم الشيخ، ما وسعني ذلك، بين طلبة العلم.. ومضيت في ذلك، فكان وجه المنهج يزداد جمالا ونضرة، ويزداد وضوحا في نفسي يوما بعد يوم، حتى رأيتني قادرا على أن أكتب فيه وأعالجه وأخطو فيه خطوات جادة على قلتها وتقاربها.

كان علي أن أكتب عن منهج الشيخ، لا لأني أَعْرَفُ الناس به؛ فهذا كلام فارغ يُكَذِّبُهُ العقل والواقع، بل لأن العارفين به حق المعرفة لم يكتبوا عنه إلا قليلا جدا، لا يكاد يتعدى وريقات في المنهج.. أما الذين كتبوا من أمثالي، ممن جرهم الحب إلى الكتابة، فرأيت أن ما كتبوه لم يستوعب المنهج استيعابا كاملا يقدمه على الوجه الذي يليق به.

وبدأت تتضح لي بعض المعالم التي كانت خفية؛ حتى استوت صورة المنهج في نفسي استقرارا يكفي لأقدم على الكتابة وقد استوت لي أسبابها أو كادت، وتمكنت في نفسي أصولها. ولكن كنت أجد عجزا يكاد يخنقني كلما هممت بالكتابة، فإذا استسلمتُ له عادت القوة إلي، وخُيِّلَ إلي أني صرتُ أَقْدَرَ من ذي قبل، فلا ألبث أن أعودَ حتى يعاودني العجز الشديد من جديد...

ومضى الأمر على ذلك حتى وجدتني مضطرا لأكتب، مضطرا لأنجز رسالة "الماستر"، فعاد حديث المنهج يراودني من جديد، فرأيت أن أفِرَّ من وجه المنهج إلى تطبيقه ما استطعتُ، وعزمت على قراءة "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري قراءةً بدا لي يومئذ أني أستطيع أن أبلغ فيها بفضل "التذوق" مبلغا يرضيني؛ فرارا من المواجهة المباشرة، واقتداء بالشيخ الذي يرى أن تطبيق المنهج أولى من التنظير له. لكن يدا حانية أخذتني بلطف وأشارت إلى منهج التذوق، وقالت لي: الطريق هنالك!!

وغفر الله لأستاذي وشيخي/ عبد الجليل هنوش، لقد رماني حرصه على علم الشيخ، وثقته بي، إلى تيه مترامي الأطراف؛ لا ناصر لي مِنْه إلا الإقدام، وإلا فلست أملك لهذا الأمر ردا.

وطنتُ نفسي على العمل، إذ لا مفر لي منه... وجمعت عدتي للعمل، ومعي ذل العجز القديم، وأمل أراه من بعيد يشع نورا، أستطيع أن أبلغه بما لدي من زاد. فرسمت لنفسي طريقا أسير عليه، ومنهجا في الإبانة عن حقيقة المنهج أرتضيه. ورأيته قادرا على الغوص في ثنايا المنهج ليستخرج منه درره، ورأيته مستطيعا أن يهدي الناس إلى حقيقة "المنهج"... فأقبلتُ على الأمر عازما حازما، لولا...

فجأة، أطبقت علي الهموم من كل وجه، وأمسكت المصائب بتلابيبي تجرني إليها جرا عنيفا، ونعم... كان زلزالا شديدا كاد يهدم كياني كله، وأوشك أن يفقدني هذا الذي صار به الإنسان إنسانا: العقل!!

ألقيت يومئذ أقلامي وكتبي وأحلامي، واستقبلت آلامي وأياما شديدة الوطء، خليلة البطء؛ لا يكاد يوم منها ينقضي، ولا يكاد تفلتني مصيبة إلا إذا أسلمتني لأختها... ورأيتني أحارب جيوشا عظيمة من النوائب والمصائب؛ أنى التفتت وجدتها تترصدني... مصائبُ في القلب وفي العقل وفي النفس، وأخرى تحيط بي إحاطة السوار بالمعصم، تأخذني أخذا وبيلا كلما خفَّ عني بعض ما أجد..

غصت يومئذ في الهم حتى الركب، وتهت حتى خشيت علي من العطب.. ثم نبهني صوت حنون -عهدته- يقول لي: ما فعلتَ؟؟ وانتبهتُ... أسأل نفسي أيضا: ما فعلتُ؟؟؟ فلم أجد جوابا.. ثم عدت لما كنت فيه من قبل.

ثم أيقظني الوقت من غفلتي، فإذا لم يبق شيء، وعلي أن أقدم الرسالة في أقرب وقت!! وتحول السؤال من: ما فعلتُ؟؟ إلى: ما أفعل؟؟ وصار علي أن أبدأ، أما كيف أبدأ؟ فلا أدري!

ألقيت بنفسي على البحث، لا لأنه أمرٌ لا بد لي من إنجازه، بل طلبا لنفسي التي فقدت، وعقلي الذي اختفى، وقلبي الذي تيمته المصائب...

وقد كان ما كان... وسقطت وحيدا لا ناصر لي من داخل نفسي ولا من خارجها، ثم تلمست الطريق لأخرج بعد ذلك من محنتي... وما زلت أتلمس طريقي... فكان هذا العمل...

فإذا نظرت، فإنك واجد أثر هذا الذي ذكرتُ لك في كل ثناياه، وستجد صدق ما أقول لك في زواياه... فكل ما فعلته في بحثي هذا، أني حاولتُ القيامَ لا غيرُ! كأني أنا المعني بقول الشاعر:

**ينـوي محاولـة القيام، وقـد مضت فيـه مخـارص كلِّ لـدْنٍ لهـذَمِ**

ينوي محاولة القيام... يا الله!!

***

حين عزمت على الكتابة، رأيتُ أن هناك ثلاثة أشياء متلازمة في هذه الدراسة: مواقف من حياة الشيخ كان لها أثر بالغ في المنهج؛ إذ لا يتم فهمه فهما صحيحا إلا على ضوئها و"تذوق الشعر" الذي هو أظهر صور منهج التذوق وأبينها في عمل أبي فهر رحمه الله ثم "التذوق الشامل" الذي هو أشمل من "تذوق الشعر" وأوسع، و هو منهج حياة لا منهج دراسة للأدب فحسب... فلا بد من الحديث عن خصائصه العامة وسماته المميزة/ التي هي نفسها خصائص تذوق الشعر، مع بعض التعديلات التي يفرضها السياق... فأي تقصير في فهم أحد هذه الجوانب مُؤَدٍّ بالضرورة إلى سوء فهم للمنهج كله... فهذا هو عمود الصورة كما رأيته.

وقد بدأت هذا الكتاب بالوقوف على المؤثرات التي انطلق منها الشيخ، وأثرت في منهج "التذوق" من بعدُ، ثم انتقلت لدراسة "المنهج" و"ما قبل المنهج"، فهما الأساس الذي لا بد منه، ثم عمدت إلى "تذوق الشعر" وما يتفرع منه، وكنت أرجو التفصيل والاستقصاء، ولكن حالت دون ذلك حوائل... أرجو أن يتيسر لي تجاوزها من بعدُ فأعيد هذا البحث على نحو أرتضيه، وعلى النحو الذي كنت أريده له حين فكرت فيه.

والحديث عن المنهج لا يتم حتى يكون حديثا شاملا عن كل جوانبه، فالشعر إنما هو جزء منه، وإن كان أعظم جوانبه لأنه أرقى بيان إنساني عرفته البشرية، وهو أرفع وأغمض ما يطبق عليه المنهج... وسيكون المنهج أوضح حين تلتئم كل أجزاء الصورة وتتشكل، وهذا ما أسعى إليه في أطروحتي للدكتوراه التي يشرف عليها أستاذي وشيخي عبد الجليل – حفظه الله، وبارك في علمه، ورزقنا من عمره فسحة يتفرغ فيها للكتابة والتأليف في زمن تصدر في الكتابة كل جاهل، وحسبكُ وبالا أن أكتب عن أبي فهر في حضرة أستاذي الذي صحبه وغاص في بيانه، وإن تعجب فاعجب لأستاذي الذي أفتى لي بجواز التيمم قرب عين ماء معين صافٍ!!– حيث أسعى فيها للبحث في أصول التذوق في الأدب العربي، وأدرس فيها آليات تنزيله وطرق عمله وتطبيقه، عسى أن يتيسر لي البيان عن المنهج بما يليق به، ويرضي عني أستاذي الكريم، ويسعد شيخي في قبره..

وقد تفضل علي أستاذي وشيخي فصدر هذا الكتاب بكلمة له عن أبي فهر وذكرياته معه وحلمه القديم الذي يأمل أن أحققه، وواسطة عقد جواهر هذه الكلمة هي هذا الوعد الذي أطل علينا من وراء الكلمات على استحياء يخبرنا بعزم الأستاذ أن يكتب كتابا عن أبي فهر، وسيكون بلا شك كتابا مميزا يجمع فيه شتات ما حدثنا به من ذكرياته عن أبي فهر ورأيه في المنهج وتوجيهاته وشروحه لكثير مما يذكره الشيخ في كتبه، مع أشياء كثيرة

مما لم يحدثنا به، وقد أسر إلي الأستاذ بهذا من قبل، ثم أذاعه في كلمته، وأنا أستعجل ولادة هذا الجنين المبارك، وأنتظره على أحر من الجمر، كما أنتظر كتابه عن مصطفى صادق الرافعي أستاذ أبي فهر في الأدب وأستاذه وأستاذي وأستاذ كل أهل البيان في عصرنا هذا.

وقد أبحت لنفسي أن أبوح بهذين السرين بعد أن فتح أستاذي عين أحد الحُلمين فأطل علينا ثم عاد لسباته لكي يحث بوحي هذا أستاذي على الوفاء بوعده، وهو الذي لا يعد إلا وفى، ولا نشك أبدا في الوفاء بالوعد، وإنما نستعجل الموعد لشوقنا للوصل، ومتى أطاق المحب صبرا في انتظار من يحب؟ فلعل هذا الليل لا يطول أكثر مما طال، فلا يكون كليل امرئ القيس ولا ليلة النابغة ولا ليلة أبي الطيب، وإنما نرجو أن يكون ما بين الوعد والكتاب مثل ما بين البرق والمطر، وإن غدا لناظره قريب..

جزى الله أستاذي عبد الجليل عني وعن العربية والفضيلة خير الجزاء، وأثابه على جهوده في سبيل العلم والأدب بخير ما جزى به المخلَصين من عباده المخلِصين، وأنطق لسان قلمه بمثل ما أجرى به لسانه من البيان وحسن المنطق، ورزق كتبه من القبول على الأرض مثل ما رزق ابتسامته الصافية النقية من الدخول إلى القلوب بلا استئذان ما لا يعلمه إلا من لقيه وحدثه، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، سبحانه وسع كل شيئا علما، وهو السميع العليم.

اللهم وفقنا لعمل الخير وخير العمل...

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾

**عبد الحميد محمد العمري**

**تاكلفت - أزيلال**

**٢٠ صفر ١٤٣٩هـ - ٠٩ نونبر ٢٠١٧م.**